﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ٣٩ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ٤٠﴾ [ق: 39 - 40]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلهما:

بعد تثبيت القلوب والعقول يُؤمَر صاحبُهما بالصبر والاقتراب

بعد أن أكَّدتِ الآياتُ السابقةُ قُدرَةَ الله تعالى على الإحياء والبعث، ببيان إهلاكه كثيرًا من القرون المُكذِّبة، وخلقِه السماوات والأرض وما بينهما في ستَّة أيام؛ قصدًا إلى تسلية الرسول ﷺ والتعريض بالكافرين، وتقويةِ النبيِّ ﷺ بهذه المعاني العظيمة، والمعتقدات الجَسيمة، التي من آمن بها؛ استقرَّ قلبُه، ولو كان واقفًا بين أركان البهتان، ومنافحًا عن الحقِّ وتنزيل القرآن؛ ناسب بعد هذا كلِّه أن يُؤمَر الرسول ﷺ في هاتين الآيتين بالصبر على كفرهم وإنكارهم، مع قَرنِ ذلك بالتقرُّب إلى الله بمزيد من الطاعات، والتضرُّع إليه في أفضل الأوقات.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿طُلُوعِ﴾: (طلع) أصْلٌ يَدُلُّ عَلَى ظُهورٍ وبُروزٍ، يُقالُ: طَلَعَتِ الشَّمسُ طُلوعًا ومَطْلَعًا، والمَطْلِعُ: مَوْضِعُ طُلوعِها، قالَ تَعالَى: ﴿حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ٥﴾ [القدر: 5]، وقال هنا: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ﴾[1].

2) ﴿ٱلۡغُرُوبِ﴾: (غرب) أصلٌ يدلُّ على الانصباب أو الانحدار إلى مقرٍّ أو مَغارٍ عَبْرَ مسافة ما بِثقَلٍ أو قوَّةٍ، ومنه: غروب الشمس بانصبابها من الأفق وغيابها في أدناه، وكل فعل (غَرَبَ) ومضارعه ومصدره الغروب، فهو للشمس[2]، يُقال: غَرَبَت تَغْرُبُ غَرْبًا وغُروبًا[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طلع)، والرّاغب، مفردات القرآن: (طلع).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (غرب).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (غرب).

3) ﴿وَأَدۡبَرَ﴾: (دبر) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى آخِرِ الشَّيْءِ وخلْفه، وهوَ خِلافُ قُبُله، وجمعه أدْبار، قال تعالى: ﴿يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ [الأنفال: 50]، أي: قدّامَهم وخلفَهم، وقال هنا: ﴿وَأَدۡبَرَ ٱلسُّجُودِ﴾، أي: أواخِرَ الصلوات[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الـصـبرُ أصـلُ الأمرِ، وجناحاهُ الـتَّـسـبـيـحُ والتَّحميد

تأمر الآيةُ الأولى رسولَ الله ﷺ بالصبر على أقوال الكافرين، وتدعوه أن يُنَزِّهَ ربَّه تعالى عن كلِّ ما لا يليق به، وأن يتقرَّب إليه بالعبادات والطاعات قبلَ طلوع الشمس وقبل الغروب، وهما وقتا الفجر والعصر، وتأمرُه الآيةُ الثانيةُ أن يسبِّحَ الله تعالى بالليل، وأن يُنَزِّهَه عن كلِّ ما لا يليق به، وأن يفعل ذلك أيضًا في أعقاب الصلوات التي يصلّيها[2]، فإنَّ الصبرَ أصل العمل، والطّاعات غذاء الصابرين.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الفاء ودلالتُها:

لا أنـفـعَ من الـصـبرِ في معاملةِ المُنكِرين للحقِّ

الفاء في قول الله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾؛ لتفريع الأمر بالصَّبر على ما سبق ذكرُه في السورة، من أوَّل قولِه تعالى: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ [ق: 2]، ومناسبة مجيئه هنا: ما تضمَّنه قولُه تعالى ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ﴾، من تسلية النبيِّ والتعريض بالمشركين؛ إذ ناسب أمره بالصبر على أقوال الكفّار بعد تهديدهم وإنذارهم بالإهلاك كما حصل لمن كان قبلهم، والمعنى: (فاصبر على ما يقولون من التكذيب بما أخبرتَهم من البعث وبالرِّسالة[3] إلى أن يأتيَ أمرُ الله)[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، مفردات القرآن: (غرب).
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 352.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 326.
(4) الواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد: 3/ 227.

غَرَضُ الأمرِ بالصَّبر:

الصبرُ خيرُ وسيلةٍ تواجَهُ بها الافتراءاتُ

الأمر في قول الله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾؛ لمواساة النبي ﷺ ونصحه وإرشادِه إلى التحلّي بالصبر الذي هو خيرُ وسيلة يواجه بها كلامَ الكفّارِ الذين ينكرون البعث، ويكفرون بما جاءهم به من وحي الله، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيم حميد، ويواجه به أيضًا كلامَ اليهود الذين يفترون على الله تعالى ما ليس فيه، والأمر في حقِّه ﷺ واجبٌ لا مَحيدَ عنه.

دلالةُ حرفِ الاستعلاءِ:

الإيمانُ يعلو بصاحبِه على كلِّ باطلٍ، ولا يعلو عليه أيُّ باطلٍ

جاء التَّعبير بحرف الاستعلاء في قول الله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على نصح الرسول ﷺ بأن يترفَّعَ عن المشركين، وأن يتجاوزهم باستعلاءِ الإيمانِ والصَّبر على مقالاتهم السّافِلَة، وأن يوَفِّرَ وقتَه وجُهدَه إلى ما هو أجدَى وأنفعُ من جدالِهم والردِّ على كلامهم، مِنَ الطّاعةِ والتَّسبيح والتَّحميد.

نوعُ ﴿مَا﴾ ودلالتُها:

شمولُ الأمرِ بالصبرِ كلَّ ما يُقال من الباطل

تحتمل ﴿مَا﴾ في قول الله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أن تكون موصولة، والمعنى: (فاصبر على الذي يقولونه)، وتحتمل أن تكون مصدريَّة، والمعنى: (فاصبر على قَولِهم)، والفرق بين الموصوليَّة والمصدريَّة: أنَّ الموصوليَّة تومِئ إلى قولهم المعهود من إنكار البعث، فهو أشهر ما قالوه في الصَّدِّ عن الرسالة، والمصدريَّة تومئ إلى عمومِ قولهم وخَوضِهم في الباطل، وأيًّا كانت؛ فهي تدلُّ على عموم المعنى وشمولِه كلَّ ما يقولُه الكافرون في حقِّ الله تعالى، وفي حق رسوله المُكَرَّم ﷺ، وفي حقِّ الرسالة التي جاءهم بها، وفي حقِّ البعث الذي أنذرهم به، من الأقاويلِ الباطلة المردودة.

دلالة التعبير بالفعل ﴿يَقُولُونَ﴾:

عبَّر البيان الكريم في قول الله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾

بفعل القول مضارعًا؛ لأنَّ الأمرَ بالصَّبر موجَّهٌ إلى ما يُقال في الحاضر والمستقبل، ممّا يتجدَّد تقاوُله وافتراؤه، وأُسند إلى ضمير الجماعة؛ ليشمل المشركين - وهم المقصودون بالخطاب ابتداءً - وغيرَهم كاليهود، ممَّن يتقوَّلون على الله تعالى كذبًا، وعلى رسوله ﷺ زورًا.

الأمـر بالصبر يشمل كـلَّ ما يتجدَّد افتراؤه

غرض حذف مفعول القول:

أوثر حذف مفعول فعل القولِ في قول الله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾؛ تأكيدًا لعموم المعنى، وشمولِ الأمر بالصبر كلَّ ما يتجدَّد من قول المشركين وغيرهم له في أيِّ أمر من الأمور، ويدخل فيها قولُهم بإنكار البعث دخولًا أوَّليًا، والمعنى: (فاصبر على ما تُلقيه أفواهُهم من فُحشِ القول، وزورِ الحديث، في شأنِ الله تعالى، وفي شأن الرسول ﷺ، وفي آيات الله التي يتلوها عليهم، وفي شأن البعث، من الأباطيل المبنيَّة على الاستبعاد والإنكار، فإنَّ مَن قدَرَ على خلق العالَم في تلك المدَّة اليسيرة بلا إعياءٍ قادرٌ على بعثهم والانتقام منهم)[1].

تـأكـيـدُ شـمـول الأمـر بـالـصـبر كـلَّ ما يُقال من الأباطيل

بلاغة التعريض في الآية:

في أمر النبيِّ ﷺ بالصبر على أقوال المشركين وسوءِ استقبالهم ما أنذرَهم به، بعد الحديث عن إهلاك الله كثيرًا من الأمم والقرون؛ تعريضٌ بالمشركين، وإنذارٌ بإمكان أنْ يَنزِل بهم من الهلاك مثلُ ما نَزَل بمن كانوا أشدَّ منهم، والقصد هو مواساة النبيِّ الكريم ﷺ فيما يَلقَى من أذى قومه، وما تُلقي به أفواههم من فحش القول وزور الحديث، ثم هو تهديدٌ لهؤلاء المشركين، وأنَّهم مأخوذون بوعيد الله لهم، وأنَّهم لن يَفلِتوا من بأس الله؛ إذا جاءهم[2].

تهديدُ المشركين بالأخذ بوعيد الله تعالى بوساطة الأمر بالصبرِ على أذاهم

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 494، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 342.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 494.

نكتةُ الأمر بالصبر:

عمقُ أثر أقوالِ المشركين في نفس الرسول يُداويه الأمر بالصبرِ

ورد أمرُ النبي ﷺ بالصبر على أقوال الكفّار في أربعة مواضِعَ من كتاب الله، هي قولُ الله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ﴾ [طه: 130]، وقوله تعالى: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾ [ص: 17]، وقوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ۝١٠﴾ [المزمل: 10]، بالإضافة إلى قوله هنا: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، والسرُّ في إفراد ما يقول الكافرون بالأمر بالصبر عليه هو الإشارة إلى أنَّ أقوالهم وافتراءاتهم كانت عميقةَ الأثر في نفس النَّبيِّ ﷺ، وكانت تؤذيه أشدَّ الإيذاء، ويمكن تصوُّرُ عمق الجرح الذي يُصاب به إنسان يدعو أهله وقومه إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم، ثمَّ لا يكون منهم إلّا أن يتَّهموه بالجنون والسحر والافتراء والكهانة وغير ذلك.

فمن هنا أُمِر الرسولُ بالصبر على ما يقولون، ونُهيَ معه عن الحزن؛ بسبب أقوالهم في غير موضع، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦٥﴾ [يونس: 65]، وقال: ﴿فَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّا نَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ۝٧٦﴾ [يس: 76]؛ لئلّا يكونَ الصبر على أقوال الكفّار مَشوبًا بحُزن، يؤثِّر على دعوته ﷺ، أو يقلِّل من أجره[1].

دلالة عطف الأمر بالتَّسبيح:

تنزيه الله تعالى بعد الإيماء إلى افتراء المشركين واليهود

جاء الأمر بالتسبيح في قول الله تعالى: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ معطوفًا على الأمر بالصبر بالواو التي تفيد المشاركةَ؛ للدلالة على ضرورة أن يكون الصبر على الأقوال مقرونًا بالتسبيح والطاعة؛ لأنَّ التَّسبيح بمعناه العامِّ فيه دلالةٌ على إصرار الرسول على تنزيه الله

(1) المليجي، من بلاغة القرآن الكريم في الحديث عن تكريم الرسول وتوقيره (رسالة دكتوراه - مخطوطة)، ص: 122.

تعالى بعد قول اليهود والكفار في حقِّه ما لا يليق بعظمته[1]، ولأنَّ التسبيح الذي يُطلَق على العبادة إطلاقَ الجزء على الكلِّ ممّا يُعين على الصبر، ويُحَفِّز الإنسان إلى المداومة عليه، واستمرار التسلُّحِ به في هذه المواجهة التي قد يطول أمدُها، وتكثُر أقوالُ المشركين وافتراءاتُهم فيها[2].

علَّة تقديمِ الصَّبر:

الصبر مهادُ التسبيح، والتَّسبيحُ غِذاء الصبر

قُدِّم الأمر بالصبر على أقوال المشركين على الأمر بتسبيحه تعالى وطاعته في قول الله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾؛ لأنَّ الصبر بمعناه الواسع حافزٌ إلى أن يستعليَ الإنسانُ على أذى الخلق مهما بلغ، وألّا تشغلَه أقوالُهم فيه، ومُعينٌ على أن يتطلَّع إلى تقوية علاقته بربِّه؛ لأنَّه القادرُ على أن يُقَلِّب قلوبَهم، ويهديَهم إلى الحقِّ والإيمان بالبعث، ويوفِّقَهم إلى الاستعداد له، فالصبر مهادٌ للتسبيح، فإذا صبَر الإنسانُ؛ كان تسبيحُه موصِلًا إلى المراد، وما نفع التَّسبيح بدون صبرٍ على البلاء.

نوع الباء ودلالتُها:

التسبيح مصحوبٌ بالرضا والحمدِ على كلِّ ما يحدُث ويُقال

الباء الجارَّةُ في قول الله تعالى: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ تفيد الملابسة، والمعنى: (نزِّه الله عمّا لا يليق بجنابه العالي، تسبيحًا متلبسًا بحمده، مصحوبًا بالرضا والحمد على كلِّ ما يحدث ويُقال)[3]، وفي استعمال الباء إشارة إلى أنَّ المراد بالتسبيح الصلاة؛ لأنَّ الصلاة تُقرأ في كلِّ ركعة منها الفاتحةُ، وهي حمدٌ لله[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 438.

(2) المليجي، من بلاغة القرآن الكريم في الحديث عن تكريم الرسول وتوقيره (رسالة دكتوراه - مخطوطة)، ص: 121.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 153، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 95.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 327.

دلالة إضافة الحمد إلى الربِّ:

النِّعَم التي اختُصَّ بها الرسولُ سببُ حَنَقِ الكافرين وحَسَدهم

أضيف الحمد إلى وصف الربوبيَّة الدالِّ على العناية والتعهُّد بالنِّعَم والخيرات في قول الله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾؛ للتذكير بما اختُصَّ به الرسول من الفضائل والنعم التي امتاز بها عن غيره، التي هي سببٌ في حَنَق الكافرين وحَسَدهم، والمعنى: (أوقِع التنزيهَ عن كلِّ شائبةِ نقص، متلبِّسًا بحمد ربِّك، بإثبات الإحاطة بجميع صفات الكمال للسيِّد المدبِّر المحسِن إليك بجميع هذه البراهين التي خصَّك بها، تفضيلًا لك على جميع الخلق في كلِّ الأوقات)[1]، أو المعنى المُقَدَّر: (نزِّهْهُ عن كلِّ نقص، ومنه ما ذكر، حامدًا له تعالى على ما أنعم به عليك من نعمة إصابة الحقِّ وغيرها)[2].

دلالةُ إضافةِ ﴿رَبِّكَ﴾:

الإيماء إلى استمرار الرعاية الربانيَّة لمن شرَّفه الله بالرسالة

ضمير الخطاب (الكاف) في قول الله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ يعود إلى النَّبيِّ ﷺ، وفي إضافة الاسم الجليل إليه إشارةٌ تؤكِّد اختصاصَ الله تعالى له بالنِّعَم، ومساندتَه المستمرَّةَ في كلِّ ما يواجهه من صعوبات، ورعايتَه الدائمة بالتوجيه إلى ما يقوّي عَزمَه، ويَشحذُ هِمَّته في مواجهة افتراءات الكفّار وأكاذيبَهم، وغير ذلك ممّا يستحقُّ مزيدًا من الصبر، ومزيدًا من التنزيه والطاعة، فدلَّتِ الإضافة على تشريف النبيِّ ﷺ وتكريمه، وبيان أنَّ الله تعالى خصَّه بالتربية والرعاية، فإنَّ الربوبيَّة في هذا المقام وعدٌ باستمرارِ الرِّعاية من الخالق سبحانه.

دلالة التَّقييد بالظَّرْف:

جاء أمرُ النَّبيِّ ﷺ بتسبيح الله تعالى مقيَّدًا بالظرف المضاف، في قول الله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ - والمرادُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 438.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 342.

به المدَّة من بعدِ طلوع الفجر إلى شروق الشمس وارتفاعها - ليُرشد الرسول وأتباعَه إلى ضرورة اغتنام هذا الوقت من مَطلَع النهار في تنزيه المولى وتسبيحِه تسبيحًا مقرونًا بالحمد؛ لأنَّه وقتُ غَفلَةِ الناس وانشغالهم بالاستعداد للعمل الدنيويِّ، ولأنَّه وقتٌ تتجدَّد فيه نِعَمُ الله على عباده، وتوزَّع فيه أرزاقهم، ولأنَّ التَّسبيح فيه هو السِّلاح الذي يتسلَّح به الساعي إلى العمل والجهاد، فيكون له من الله القوَّة التي تعينه في عمله وجهاده[1].

مطلعُ النهار وقتُ استعداد للعمل الدنيوي، ووقتُ تجدُّد النعم، وتوزيعِ الأرزاق

معنى تعريف ﴿ٱلشَّمۡسِ﴾:

(أل) في قول الله تعالى: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ﴾؛ لتعريف العهد، فالشمس هي الكوكب الذي يعرفه الناس، ويعهدون حركته اليوميَّة، وقد أوثر التعبير به؛ لما فيه من الإعجاز، وفي ذكر طلوع الشمس في سياق السّورة إشارةٌ إلى عظيم قدرة الله على كلِّ شيء بما في ذلك الإحياء والبعث، الذي يُعدُّ أمرًا يسيرًا؛ إذا قورن بحركة الشمس وانتظامها شروقًا وغروبًا.

الإحياءُ والبعثُ أيسرُ من حركة الشمس شروقًا وغروبًا

دلالة العطف بالواو:

الواو في قول الله تعالى ﴿وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾ لعطف ما بعدها على قوله تعالى: ﴿قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ﴾، ودلَّ العطفُ على التنبيه إلى ضرورة اغتنام الوقت الذي يبدأ من زوال الشمس عن كَبِد السماء، وينتهي بغروبها في مزيدٍ من تسبيح الله تعالى وتنزيهه؛ لأنَّه يُشارك مَطلَعَ النَّهار في كونه وقتَ انشغال؛ إذ يَؤوب الناسُ من أعمالهم، راغبين إلى الراحة في بيوتهم، كما أنَّه الوقت الذي يجب أن يمتلئ بحمد الله وشكره على ما كان منه من عون وتوفيق، ثمَّ هو استغفارٌ لما وقع من إهمال أو تقصير[2].

مدخلُ اللَّيل وقتُ شكرٍ لله على ما كان من عون وتوفيق

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 31/ 494.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 31/ 494.

غَرَض تَكرارِ الظَّرف:

مدخل الليل يبدأ من زوال الشمس عن كبد السماء

أعاد البيان القرآنيُّ ظرفَ القَبليَّة مع المعطوف، فقال تعالى: ﴿وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾؛ حرصًا على الدِّقَّة في تحديد الوقت المأمور بالتسبيح فيه، وتأكيدًا لاتِّساعه، فهو وقت يبدأ من زوال الشمس عن كبد السماء - لأنَّ زوالَها يُؤذِن بغروبها - وينتهي بالغروب، فيتَّسع؛ ليشمل صلاتَي الظُّهر والعصر معًا[1].

نوع الطِّباق وبلاغتُه:

جُمِعَتِ الأوقاتُ الترامية في تقابُلٍ لطيفٍ وتناظُرٍ بديع

بين قول الله تعالى: ﴿طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ﴾، وقوله: ﴿ٱلۡغُرُوبِ﴾ طِباقٌ معنويٌّ، جَمع فيه البيانُ بين اللَّفظ وضِدِّه في المعنى، فطلوع الشمس شروقُها، وضِدُّه الغروب، والطِّباق بينهما دالٌّ على فضيلة تسبيح الله وحمده فيهما؛ لأنَّ كِلَيهما وقتُ غَفلة وانشغال، ومن ثَمَّ كان للصلاة والتسبيح فيهما مزيَّةٌ ودلالةٌ على حِرص الفاعل على إحسان صِلَتِه بربِّه، والتَّرَفُّع والاستعلاء على أقوال الناس وأذاهم؛ ليشملَه الله بالعناية والرعاية، ودفعِ الأذى والمضرَّة.

غَرَضُ العَطفِ ودلالتُه:

استكمالُ ذكر أوقات الطّاعة حَضًّا على اغتنامِها

الواو في قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾؛ لعطف ما بعدها على ما قبلها؛ استكمالًا لبيان الأوقات التي يجب اغتنامها لغفلة الناس ولهوهم فيها، ممّا هو أدلُّ على محبَّة العبد ربَّه، فبعد أن ذكر وقتَ الانتشار إلى الأمور الضروريَّة التي بها القِوام، والرجوع لقصد الراحة الجسديَّة بالأكل والشرب واللعِب والاجتماع بعد الانتشار والانضمام - مع ما في الوقتين من الدلالة الظاهرة على طَيِّ الخلق ثمَّ نشرهم - أتبعه ما يكون وقتَ السكون المراد به الراحةُ بلذيذ الاضطجاع والمنام[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 327.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 438، 439.

نوعُ (مِن) ودلالتُه:

حرفُ (مِن) في قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ للتبعيض، وفيه دلالةٌ على أنَّ المرادَ توجيهُ النبي ﷺ وأتباعِه إلى اغتنام الأوقات الفاضلة من اللَّيل في الصلاة والتسبيح المقرونِ بالحمد؛ لأنَّ الليلَ وقتُ الخلوات، وهي ألذُّ المناجاة، ويمكن أن تكون (مِن) هنا ابتدائيَّةً، والمعنى: (سبِّح في أيِّ جزءٍ بدايةً من أوَّل الليل)[1].

اللَّيلُ وقتُ الخلوات، وهو ألذُّ المناجاة

دلالة تعريفِ ﴿ٱلَّيۡلِ﴾:

(أل) في قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ لتعريف العهد الذهنيِّ، فالمقصود به الليل المعروف، الذي هو وقت الراحة والسكون، وأوثر التعبير به؛ لأنَّ التَّسبيح والصلاة فيه أكثرُ رِقَّةً وخشوعًا، وأدلُّ على رغبة الإنسان في الاتِّصال بربِّه، والترفُّعِ عمّا يلقاه في يومه.

التَّسبيح والصَّلاة في اللَّيل أدلُّ على رَغبةِ العابدِ

نوعُ الفاء ودلالتُها:

الفاء في قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ للجزاء؛ إذ قُدِّم الجارُّ والمجرورُ المتعلِّق بفعل التَّسبيح عليه؛ اهتمامًا به وتحريضًا عليه، فاكتسب بتقديمه معنى الشَّرط والجزاء، فجُعل متعلَّقُه بمنزلة الجزاء وأدخل عليه الفاء، كما في قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ﴾ [الإسراء: 79]، وقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦﴾ [المطففين: 26][2].

توكيد التَّسبيح في اللَّيل الذي هو محلُّ السكون والانقطاع

ففي التَّعبير بالفاء فائدةُ تأكيدِ الأمر بالتسبيح من الليل؛ لتضمُّنِه معنى الشرط، كأنَّه قيل: (وأمّا من الليل؛ فسبِّحه)، وذلك لأنَّ الشرط يفيد وجوبَ الجزاء بوجودِ الشَّرط، فكأنَّه قيل: (النَّهار محلُّ الاشتغال وكثرةِ الأعمال، وأمّا اللَّيل؛ فمحلُّ السكون والانقطاع،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 439، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 154.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 184.

فهو وقت التسبيح)، أو قيل: (الليل محلُّ النوم والثبات والغفلة، وأمّا الليل؛ فلا تجعله للغفلة، بلِ اذكر فيه ربَّك ونزِّهه)[1].

ويجوز أن تكون الفاء للتَّفريع على قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾؛ اعتراضًا بين الظُّروف المتعاطفة؛ للتَّأكيد على الأمر بالتَّسبيح، كأنَّه قيل: (وسبح بحمد ربِّك قبلَ طُلوع الشَّمس وقبلَ الغُروب ومن اللَّيل وأدبارَ السُّجود، فسبِّحه)[2].

لطيفة تَكرارِ الأمرِ بالتَّسبيح:

إعـــادةُ الأمـــرِ بالفعل تأكيدٌ لضرورةِ الازدياد منه

أعاد البيان الكريم الأمرَ بالتسبيح، في قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾، وكان من الممكن أن يأتيَ التعبير بدونه، فيُقال: (وسبِّح بحمد ربِّك قبلَ طلوع الشمس وقبلَ الغروب ومِنَ اللَّيلِ وأدبارَ السجود)، لكنَّ النظم أعاد الأمر به بين ﴿ٱلَّيۡلِ﴾ ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾؛ تأكيدًا لضرورة اغتنام بعض الليل في مزيد من التسبيح والتقرُّب إلى الله، وفيه أيضًا - إذا جُعل قوله: ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ معطوفًا على محلِّ ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾ - تأكيدُ ضرورةِ اغتنام ما بعد الصلوات في التَّسبيح؛ لتكون حياةُ الإنسان كلُّها تنزيهًا وتعظيمًا لله[3]، وأمّا إذا كان قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحۡهُ﴾ معترضًا بين الظُّروف المتعاطفة[4]؛ ففيه تأكيدُ مُطلق الأمر بالتَّسبيح في جميع الأوقات المذكورة.

بلاغة فنِّ الاكتفاء:

عـبَّر بالتسبيح منفردًا؛ اكتفاءً بذكر الحمد أوَّلًا

جاء الأمر بالتسبيح بغير ذكر الحمد، في قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾؛ لدلالة الأمر في قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ على ضرورة قَرنِ التسبيح بالحمد، فعبَّر بالتسبيح منفردًا؛ اكتفاءً بذكر الحمد أوَّلًا، والتقدير: (ومن الليل فسبِّح بحمده وأدبارَ السجود)[5].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 154.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 328.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 153.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 328.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 153.

دلالة العطف:

الدعوةُ إلى تسبيحِ الله وتعظيمِه في جميع الأوقات

الواو في قول الله تعالى: ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ للعطفِ، إمّا لعطف ما بعدها على ﴿قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾، كأنَّه قيل: (وسبِّح بحمد ربِّك قبلَ طلوع الشمس وقبلَ الغروب وأدبارَ السجود)، وذكر بينهما قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾، ففيه الأمر بالمداومة على التسبيح في كلِّ الأوقات، كأنَّه قيل: (سبِّحْ قبل طلوع الشمس، وإذا جاء وقت الفراغ من السجود قبل الطلوع؛ فسبِّحْ، وسبِّحْ قبل الغروب، وبعد الفراغ من السجود قبل الغروب سبِّحْه)، فيكون ذلك إشارة إلى صرف الليل إلى التَّسبيح، وإمّا أن يكون عطفًا على ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾، وعلى هذا يكون عطفًا على الجارِّ والمجرور جميعًا، وتقديرُه: (وبعض الليل، فسبِّحه، وأدبارَ السُّجود)[1].

سرُّ التعبير بالأدبار:

وقتُ التسبيح ممتدٌّ من الصَّلاةِ إلى الصَّلاة

الأدبار في قول الله تعالى: ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ ظرف زمان، أوثر التعبير به؛ للدَّلالة على امتداد وقت التسبيح من بعد الصلاة إلى أن يأتيَ وقت الصلاة التي تليها، فيظلَّ الإنسانُ معظِّمًا ربَّه مسبِّحًا بحمدِه في أغلب أوقات الليل والنهار، ولا يتحقَّق هذا المعنى إذا جاء التعبير بالأعقاب الدالِّ على ضرورة أن يكون التسبيح بعد انتهاء الصلاة مباشرة، وعُبِّر بالأدبار جمعًا؛ ليشمل الصَّلواتِ المفروضةَ وغيرَها من النَّوافل.

بلاغة المجاز في ﴿ٱلسُّجُودِ﴾:

أقربُ ما يكون العبدُ من ربِّه وهو ساجد

في التعبير عن الصَّلاة بالسُّجودِ في قول الله تعالى: ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ مجازٌ مرسلٌ علاقتُه الجزئيَّة؛ إذ عبَّر البيانُ عن الصلاة بأحد أركانها وهو السجود، وفي إيثار التعبير به دون بقيَّة الأركان إشعارٌ بأهمّيَّتِه ومدى حاجة الإنسان إليه، لا سيما في مثل هذا السياق الداعي إلى الصبر على أقوال المشركين وأذاهم؛ إذ يشعر الساجدُ فيه

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 154.

بالقرب من ربِّه، ويتخلّى عن حَولِه وقوَّتِه، ويعترف بضعفه وعجزه، وبه يلجأ إلى ربِّه القادِرِ المقتَدِر على حمايته وحفظه من الأقوال والمكائد.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الطُّلوع والشُّروق:

طُلوع الشمسِ مرحلةٌ تَسبِق شروقَها

الطُّلوعُ نفاذٌ إلى أعلى من أثناءِ حاجزٍ رقيق، وهذا الحاجز في طلوع الشمس مُتَوَهَّم؛ بسبب غيابها في الأفق، أو هو استعمالٌ في جزء المعنى[1]، أمّا الشروق؛ فهو وقتُ بزوغِ الشمس[2] وظهورِها مُشِعَّةً مُنيرَةً، ولمّا كان قصدُ الآية الإرشادَ إلى الأوقات التي يجب أن يتفرَّد الإنسانُ فيها بتقوية الصِّلة بربِّه القادر على كفايته أذى الناس وأقوالَهم؛ ناسب التعبير بالطلوع تَوَخّيًا للدِّقَّة في تحديد هذا الوقت، وأنَّه ينتهي قبلَ أن تأخُذَ الشمسُ في الخروج ممّا كان يَستُرُها عن الناس، مُعلِنَةً انتهاءَ الليل وبدايةَ النهار؛ أمّا الشروق؛ فهو الوقت الذي اتَّضح فيه النهارُ، وانتشر الناسُ في الأعمال.

الأدبار والأعقاب:

الأدبار فيه توسيعٌ لوقت التسبيح، والأعقابُ دونه في ذلك

الدُّبُر آخرُ الشَّيءِ وخَلْفُهُ، وهوَ خِلافُ قُبُله، وجمعه أدْبار، قال تعالى: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [الأنفال: 50]، أي: قدّامَهم وخلفَهم[3]، والعَقِبُ مُؤَخَّرُ الرِّجْل، وجمعه: أعقاب، واستُعير للولد ووَلَدِ الولد، ومنه: رجع على عقبه؛ إذا انثنى راجعًا، وانقلب على عقبيه، نحو رجع على حافرته[4]، فالتعبير بالأدبار يدلُّ على اتِّساع المدَّة التي يُؤمَر فيها بالتسبيح بعد الصلاة، أمّا التعبير بالأعقاب؛ ففيه تضييقٌ لهذه المدَّة، ولمّا كان من مقاصدِ التعبير أن يبقى المخاطَب على صِلَةٍ دائمةٍ بربِّه؛ ناسب التعبيرُ بأدْبارِ السُّجود، لتحقيقه المقصود.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (طلع).
(2) السيوطي، معترك الأقران: 2/ 492.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، مفردات القرآن: (غرب).
(4) الراغب، مفردات القرآن: (عقب).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والخمسون،
سورة الحُجُرَات من الآية 15 إلى سورة الطُّور الآية 24
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والخمسون، سورة الحُجُرَات من الآية 15 إلى سورة الطُّور الآية 24
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 57 ، 802 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-650-27-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 57 : المجلد السابع والخمسون، سورة الحُجُرَات من الآية 15 إلى سورة الطُّور الآية 24.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-650-27-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4331956 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"